

أو استهجانه . ويزيد الناس اهتماماً به اختلاف الأذواق في تقدير الشيء الجليل والقيبح ، وتفاوت الإدراك في معرفة الصواب والخطأ ، وبمظم الخلاف في دقائق الأمور التي لا يبينها حسن واضح أو إدراك يبين ، وكلما دقت المسألة عُسِر الحكم فيها وكثر الخلاف ؛ وكلما كثر الخلاف كان النقد أصعب ، وكان على صعوبته أزم . والنقد يكون في العلوم ، والصناعات ، ويكون في الآداب . وهو في هذه أغمض وأعسر لأن الآداب لا يرجع فيها إلى الحس أو العقل ولكن إلى العاطفة والذوق ، وهما من الأمور النفسية يصعب تحديدها ويكثر الاختلاف في أحكامها

والنقد يكون في مبتدئه أحكاماً لا يدعمها برهان ولا يوضحها بيان ، ثم تتناقض الأحكام ، وتتصادم الآراء ، فيذهب كل ناقد يفسر رأيه ، وقيم حجته ، على قدر ما يواتيه فكره ، وعمده ذوقه ، حتى ينتهي الجدل إلى أمور مسلمة ومقاييس معدودة يحكم الناس إليها فيتفقون . وربما ينتقل الخلاف من المسائل الجزئية التي يختلفون فيها إلى المقاييس الكلية التي يقبسون بها ؛ يختلف اثنان في وزن شيء أو طوله فيمقدان إلى الميزان أو الذراع ليعرفا الصواب فيما اختلفا فيه ، وربما يقع الخلاف في صنعة الميزان أو في طريقة الوزن أو في الذراع أو طريقة النزع .

وكذلك الأمور المنوية ، يقع فيها الخلاف فيرجع المختلفون إلى قواعد يتفقون عليها ، وربما يختلفون في القواعد نفسها . يقول واحد : هذا حسن ، ويقول آخر : بل هو قبيح ، فيرجعان إلى القوانين التي يعرف بها الناس الحسن والقيبح ، يقول أحدهما : حسن لأنه نافع ، ويقول الآخر : قبيح لأنه ضار ، ثم يعرفان أنه نافع أو ضار فيتفقان . وقد يبادى الخلاف بينهما في المقياس نفسه ، فيقول أحدهما : كل نافع حسن ، ويقول الآخر : ليس كل نافع حسناً ، ليس مقياس الحسن والقيبح هو النفع والضر بل قبول النفس أو نفورها أو اللذة والألم . فإن لم يتفقا على مقياس الحسن والقيبح استمر الخلاف بينهما

كذلك الأدب : يسمع أحد الناس قصيدة فيستحسنها ويطرب لها ويخالفه آخر ؛ فيقول الأول : ألفاظها مألوفة سلسلة حسنة النغمة ، ومعانيها جميلة فيها سمو بالنفس ولها أثر في القلب ، وكثير

دراسات في الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

—•••••

الأدب الموضوعي نقد وتاريخ

رأينا فيما تقدم أمثلة من الأدب الموضوعي ، ورأينا بعض هذه الأمثلة يتناول قطعة من الأدب ليست مافيه من عيوب ومزاياء ؛ ورأينا أمثلة أخرى تبين مناهج الكلام البليغ ، وتوضح مزاياء هذا الكلام في معانيه وألفاظه وأساليبه . وقلنا إن هذه الأمثلة وما يشبهها تسمى نقداً . ثم وجدنا أمثلة غيرها تقصد إلى تبين أطوار الكلام في المصور المتابعة وإيضاح أسبابها ، وقلنا إن هذه الأمثلة وأشباهاها تُعد من تاريخ الأدب . وهنا نُجمل الكلام في النقد الأدبي وتاريخ الأدب

١ - النقد الأدبي (١)

نقد الكلام تبين مزاياءه وعيوبه ، وتمييز جيده من رديئه يقال : نقد الكلام وانتقده على قائله ، وهو من نقدة الشعر ونقاده ... الخ (٢)

٢ - نسو النقد وتطور

النقد طيب في الإنسان ، ينشأ من استحسان الشيء

(١) لا قصد في هذا للقال استحباب الكلام في النقد ، ولكن نريد أن نصوره لغاري في أيسر الصور وأقربها
(٢) وأما المعنى القوي للكلمة فقد جاء على الأثر الآتية ويمكن ترتيبها على النسق الآتي لتدل استعمال الكلمة بين أول ما فيها القوية ومعناها الاصطلاح :

- ١ - نقد الطائر الحب ينتقه إذا لقطه واحدة واحدة
- ٢ - نقد الشيء ينتقه إذا شربه فأصبحه كما تنقر الجوزة
- ٣ - في حديث أبي ذر : فلما فرغوا جسد ينتقد شيئاً من طعامهم ، أي يتناول شيئاً منه
- ٤ - نقد الدرام تداً : ميز زائماً من جيدها
- ٥ - فلان ينتقد فلاناً بيته : يدم النظر إليه خلة
- ٦ - ناقدت فلاناً ناقته
- ٧ - نقد الناس طابهم . وفي حديث أبي برداء : إن نقدت الناس قدوك ، وإن عبتهم طابوك

حرّ فيما يُبين غير مطالب إلا بالإجادة في بيانه ؟
هل الحق والصدق من أسس البلاغة أو يكون الكلام بليغاً
وهو كذب وباطل ؟

هل للأديب مقصد فيما يكتب ، أو هو كالزهرة تنشر الرائحة
العطرة بطبعها لا تبني وراء هذا شيئاً ؟

وهذه المباحث أعمق مباحث النقد وأوسعها وأعظمها جدوى
لأنها تتناول وجهة الأدب ومقاصده وموضوعاته ، تمعد إلى سبُل
الأدب تبيينها وتوضحها ليكون الأديب على بينة من غايته وسبيله
قبل أن يسير ، فلا يعتسف الطريق ولا يضل دون الغاية

٤ - النقد في الأورب العربي

أما النقد اللفظي الذي يرجع إلى متن اللنة والنحو والصرف
والمروض فالأمر فيه يسير لا يحوج إلى شواهد ، وهو واقع
في كل زمان يشترك فيه الشادون والنهون . ويرى في كتب
الأدب كثير منه ؛ وقد كتب فيه الحريري كتابه « درة النواص
في أوهم الخواص »

وأما نقد الألفاظ من حيث سلاستها أو تنافرها وألفها
أو غرابتها ونحو هذا ففي كتب الأدب والبلاغة مباحثه وشواهد
والنقد المنوي عرفه العرب في كل عصور الأدب حتى
العصر الجاهلي ولكنه كان أول الأمر نقداً مبهماً غير معتل
- كقولهم : فلان أشعر ، وهذه القصيدة أحسن ؛ أو نقداً لمعان
جزئية أحسن فيها القائل أو أساء

ثم حاول العلماء منذ القرن الثاني أن يصفوا طرائق البيان ،
ويحددوا حدوده ويبينوا معالنه فكتبوا في البيان وأكثرها وادعموا
دعوتهم بكثير من المنظوم والمنثور

ونجد النقد عندهم مفرقاً في الكتب الآتية وأمثالها :

١ - كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥

٢ - كتاب نقد الشعر وكتاب نقد النثر لقدامة بن جعفر

المتوفى سنة ٣٣٥

منها مخترع . ويخالفه الثاني فيما زعم للألفاظ والمعاني من أوصاف
فيقول : ليست الألفاظ مألوفة سلسة ، أو يوافقه على أنها كما قال
ولكن يدعى أن الألفة والسلاسة ليست مقياس الجمال أو البلاغة ؛
فأما أن ينشأ إلى مقياس رضياه فيتفقان ، أو يتأدى بينهما الخلاف
وفي البحث عن المقاييس والاتفاق عليها أو الاختلاف فيها
يكون تطور النقد الأدبي وتثعب مذاهبه ، ووضوح مناهجه ،
واستناده إلى براهين تتفق فيها المعرفة الواسعة والتذوق المهذب
والحس المرهف

٣ - ضروب النقد

وفي النقد الأدبي ضروب منها :

١ - نقد الجزئيات ، وهو نقد قطعة من النثر أو الشعر بالنظر
في ألفاظها وتبين أنها مما عرف في اللنة ، وأنها موافقة للصرف
والنحو ، وأنها مألوفة غير مبتذلة ، وأن وزنها ، إن كانت
من الشعر ، صحيح لا خلل فيه - أو بالنظر إلى معانيها وتبين
أنها غامضة أو واضحة ، قيمة أو تافهة ، وطريقة أو مبتذلة ،
ومخترعة أو مسروقة ، وأن التصوير فيها وان بالمقصد أو مقصر
عنه ، وأن مجازاتها واستعاراتها حسنة أو قبيحة ... وهلم جرا
٢ - وقد يتناول النقد شاعراً أو كاتباً ؛ فيقال إنه ركيك
الألفاظ أو فاض المعاني أو مستهجن الموضوعات أو متكلف
لا يصور الطبيعة أو سراق غير مخترع

٣ - وربما يكون النقد أوسع من هذا فلا يتناول قطعة
أو شاعراً بينه ، بل يتناول طرائق البيان ومناهج البلاغة ؛
فيقال : ينبغي أن تؤلف الألفاظ على أسلوب كذا ، وأن تحمر
من السجع والصناعة ، وينبغي أن تكون المعاني بينة قريبة من
المخاطب ، وينبغي أن يطول الكلام أو يقصر على قدر المقام وهكذا
٤ - وأحياناً يسمو النقد فوق هذا كله وينظر إلى الأدب
ومقاصده عامة فيتناول مسائل كالمسائل الآتية : هل للأديب أن
يطرق كل موضوع ، أو هو جدير بأن يتناول موضوعات سامية
لا يتناولها العامة ؟

هل على الأديب أن يلتزم الأخلاق والآداب فيما يكتب أو هو

إنني تعبئة!

للساعرة أيمه هويدر ولكسكي

إنني تعبئة الليلة ، وهناك شيء - لست أدري على وجه التحقيق ما هو . ولملّه هزيم الريح أو دوى المطر في جنح الدجى ، أو لملّه تصايح الطير على الأبيك من كل جانب في الخارج هناك شيء ، أجد لشجوه أمثالاً تستخرج وجدى ، وتبعث أساى من بعد هجومه ، وتعيد إلى الماضى السحيق وأحزانه وآلامه فأشعر ، وأنا أجلس هنا متأملة مفكرة ، أن يد شهر مدير ، من شهور يونية التى خلت ولم يبق من عهدى السعيد إلا التذكر ، تمتد الآن إلى أوتار قلبى المرنجية ، وتشدّها ، وتصلح وحدة أوزانها ، وتحكم انجم اهترازاتها

إنني تعبئة الليلة ، وإنى لأفتقدك ، وأحنّ إليك يا حبي ، وأشتاقك شوقاً أكتمه جهدى ... ومن خلال الدموع أحسب أننى أراك ، وكأنك تمضى اليوم فقط مع الناهيين إلى ربهم مع أن الزمان قد مدّ خطاه الواسعة في مهامه مترامية ، ونجاوز عهوداً عديدة وأعواماً مديدة منذ فارتقتى ، وكأنى أستشعر الانفراد والوحشة من جديد ... أنا التى كثيراً ما أحيى في عزلة وحدى ، وهامى ذى أوتار قلبى المشدودة تدعو الهديل ولكن هيات أن يجيها منوط بأطراف الجناح رميم ... هيات أن يطربها باللحن القديم الحلو الرنان

إنني تعبئة ، وذلك المحزن العصى الذى كرّرت عليه الأعرام ، يشور دفعة واحدة على غير انتظار ، وإن ثورته الهائلة لتحدث فيه ثلثة واسعة تدافع منها الآلام ، وتتحدر بقوة إلى قاع نفسى كما يتحدر بنتة تيار نهر هائج من ثغرة في حواجزه وينفجر كطوفان متدافع لا تقوى عليه السدود ، فيجرف في طريقه كل شيء ، ويكتسح في لجة الريد ، وتبجه الرغى بقايا سفينة محطمة لها شراع ناصع البياض ، وإن تلك اليد تهوى ثقيلة على أوتار قلبى المشدودة وتجر كها بريشتها في عنف لتكتسح منها الأنتام

ولكن يخيل إلى أن أوتار عواطفى التى تلاشى رنينها مع الزمان عادت تطنطن وتدوى بعد ذلك الأمد الطويل بفعل تلك اللمسات العنيفة التى تحاول أن تجدد وقع اللمسات الأولى الرقيقة ، بيد أن الثغبات التى تفر من تحت الأنامل المحركة الأوتار لا ترجع غير صوت النواح والمويل ، وصدى الحسرة والأين الزهدة

٣ - الوساطة بين النبي وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز

الجرجاني التوفى سنة ٣٩٢

٤ - كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحترى للحسن بن بشر

الأمدي التوفى سنة ٣٧٠

٥ - كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق

القيروانى التوفى سنة ٤٥٦

٦ - كتاب أسرار البلاغة ودلائل الأبحاز لبيد القاهر

الجرجاني التوفى سنة ٤٧١

٧ - كتاب المثل السائر في أدب الشاعر والنائر لضياء الدين

ابن الأثير التوفى سنة ٦٣٧

تناول هؤلاء البيان من جهاته المختلفة ألفاظه ومعانيه وأساليبه

وحاولوا جهد الطاقة أن يبينوا النهج للبلغاء ويصفوا القواعد التى

يبنى عليها الكلام البليغ

ولكن نقادنا لم يتناولوا الباحث العامة التى تبين وجهة الأدب

ومقاصده ، وموضوعاته وصلة الكلام بقائله وصلة القائل ببيئته

وقد عنى بهذا الأوربيون منذ عصر النهوض ، وتوسع فيه

الفرنسيون منذ القرن السابع عشر الميلادى حتى نبغ منهم في القرن

التاسع عشر ثلاثة يُعدون أئمة النقد الأدبى حتى اليوم . وهم :

١ - سنت بوف^(١) وأساس مذهبه معرفة الصلة بين الأدب

ونفس الأديب ، وجمل النقد تاريخاً للعقول والأنفس يتعرفها

في آثارها ويكشف عن خباياها

٢ - تين^(٢) ومذهبه يعنى كثيراً بمعرفة البيئة التى نشأت

الأديب ليتوسل بها إلى معرفة الأديب نفسه

٣ - برنتيير^(٣) ومذهبه أن البلاغة قابعة على التدرج والتطور

كالحيوان والنبات وعمل الناقد هو تتبع هذه الأطوار

هيد الرفاق هرام

(١) Saint Beufe (١٨٠٤ - ١٨٩٦)

(٢) Taine (١٨٢٨ - ١٨٩٣)

(٣) Ferdinand Brunetiere (١٨٤٩ - ١٩٠٧)